

## الفصل الثالث عشر تحليل شخصية الخيام

كان عمر الخيام شخصية فريدة، وكان بكل المقاييس إنساناً موهوباً، ومبتقياً لا شك فيها، كما سبق أن فصلنا ونهتُ إليه المراجع العلمية والموسوعات العالمية وكُتِب التراث. وذلكاه قد شهد به الثقات فقالوا فيه إنه علامة عصره وأوحد زمنه في الحكمة، ولم يوجد له مثيل في الرياضيات والفلك، وكان تلو ابن سينا، ولقبوه سيد الحكماء، وفيلسوف العالم، والإمام، وحجة الحق، والدستور.

وقال الشهرزوري في ذاكرته إنه قرأ مرة في أصفهان كتاباً سبيع مرات، فلما عاد إلى نيسابور استطاع أن يمليه. وقال القزويني إنه كان حلالاً للمشاكل فاشتكى له أهل الرياط من برق الطير فصنع لهم ما يقيهم منه. والذكاء في أحد تعاريفه هو القدرة على حل المشاكل. وعلامات النبوغ تظهر على الموهوب والمبتقري منذ طفولته. وحكى نظام الملوك عنه أنه لما عرفه صبياً في مدرسة الإمام موفق النيسابوري كان آية في الفطنة والذكاء.

وفي قدراته المعرفية قال الشهرزوري إنه كان موسوعة في طم القراءات. وقال البيهقي إنه كان عالماً بكل جديد في أجزاء الحكمة، وقدمه في الرياضيات والفلك على الإمام الفزالي. وفي تنمة صوان الحكمة أن الخيام كان ضلعها في تفسير القرآن، ومحفوظاً بكل قول نادر في التفسير، ويورد فيه كل شاهد شارد.

وقالوا في صفاته الأخلاقية إنه لم تكن له عادات جامدة، وكان محباً للتغيير. وظهر أن له إرادة في تصرفاته، وتأثير على حاشية السلطان وتوجيههم. وكان مجادلاً ممتازاً، يحب الحوار، وأن يجتمع بالناس، ويباهي بأصحابه.

واختياره للتدريس يكشف عن خصائص فكرية وميول للقيادة وتولى زمام الأمور، والقدرة على الصياغة والتشكيل والابتكار. وامتاز الخيام بالتخيل والتفكير، وله استفرقات فيهما، وبه ميل الى تأسيس أفكاره على المنطق. ونستطيع أن نقول إنه كان اجتماعياً بشروطه، وودوداً، ويصدر في سلوكه عن مثل علمها بينية ومعرفية. ولم يكن انانياً، ولا منفصلاً من الواقع، ولا منساقاً وراء الانفعالات. ولم يتابع في أخلاقياته العادات والتقاليد من غير وعي ونهم. ولم يندفع إلى عدوان. ولم تكن سلوكياته مفككة، بل هو المهذب تهنيئاً كاملاً، والناصح في انفعالاته، والصريح والمتوازن والمتعقل والمتمسك بمبادئه.

وكان عاشقاً للجمال، ومحباً للموسيقى. ولقد علمنا أن له رسالة في الموسيقى ضاعت

مخطوطتها أثناء حرب الخليج ضمن ما ضاع من مقتنيات معهد المخطوطات العربية.

ولعل أهم ما ينبغى أن نلفت إليه ونوليه عنايتنا من البحث هو الناحية المزاجية فى شخصية الخيام. وقد ذكر البيهقى أنه كان «سئ الخلق ضيق العطن»، ويعنى بذلك غالباً أنه كان سوداوى المزاج، ويغلب عليه الكبت الانفعالى والميل إلى التشاؤم، وإلى النظر الى الأمور من جانبها القاتم. غير أن البيهقى قد تناقض وقال فى نفس الوقت إنه كان متوقد الذكاء، شديد الفطنة والانتباه، واعى الذاكرة. ومن شأن التشاؤم والكبت والقمع وما أشبه أن يؤثر على الذاكرة ويتسبب فى النسيان الكثير وتشتت الانتباه. فكيف يستقيم الأمران إذن؟ والغالب أن البيهقى اعتمد فى ملحوظته السابقة على ما يروى عنه من رباعيات متدنية الأخلاق. ولعله بالذات يشير إلى رباعياته الإباحية التى تصفه بالخلامة، وتحيطه بمجموعة المجان من قلندرية الحانات. وربما كانت إشارته خصوصاً إلى الرباعية التى يقول فيها إنه لم يحب شيئاً قدر حبه لهذه الثلاث خصال: اللواطمة والزنا والغدر!! ولقد عرفنا أن هذه الرباعيات منحوله ولا يمكن أن يكون الخيام قد وضعها.

واللواطمة التى تتضمنتها الرباعية السابقة، انحراف جنسى واضطراب فى الشخصية يظهر أثرهما فى كل أجزاء السلوك من تفكير وتوجهات ونزعات وميول، فإن استطاع المريض بها أن يخفى أمره عن الناس، فلن يستطيع أن يستر خوافيه وهى أبين عن حاله من السلوك الصريح. ومن تحصيل الحاصل نفى هذه التهمة الشنيعة عن الخيام، فبطلانها أظهر من كل نفى. وكذلك الزنا والغدر. وقد دحض الخيام كل اتهامات من هذا القبيل فقال مما أثر عنه:

**اصوم من الفحشاء جهرةً وخفية \* عافاً، وإطاري بتقديس فاطرى**

أى أنه لا يأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا عن خوف من عقاب أو طمعاً فى ثواب،

ولكنه شأن الأولياء أولى الهمة لا يأتيتها عافاً فى حدود ما حرّم الله. ويقول:

**وكم عصابة ضلّت من الحق فاهتدت \* بطرق الهدى عن فيضى المتقاطر**

أى أنه كان سبباً فى هداية الناس وإرشادهم، وصرفهم عن الغواية والضلال.

ويقول فى عبارة جميلة جازماً بما عليه من كريم الأخلاق وفيض الهدى:

**فإن صراطى المستقيم بصائر \* نُصِبْنَ على وادى العمى كالقناطر**

وكأنما الخيام يتنبأ بما سيوجه إليه من افتراءات، وما سيتهمه به المرجفون، فقال:

سبقتُ العالمين إلى المعالي • بثاقبِ فكرةٍ وملوهمًا  
فلاحٍ بحكمتي نود الهدى في • ليالٍ للضلال مدلهمة  
يريد الهامدون ليطفئوه • وأبى الله إلا أن يُتمَّ

\*\*\*\*\*

ولعل الإبداع هو أبرز سمات الخيام. والإبداع هو التفكير التغييري. ولا يسمى المفكر أو الفيلسوف أو الشاعر مبدعاً إلا إذا اتسم تفكيره بالأصالة، وكانت له طلاقة فكرية وانطلاق ذهني، وامتاز بالقدرة التعبيرية العالية، والفصاحة والإبانة، واستحضار الكلمات، واستخدامها استخداماً مؤثراً.

وتتمثل القدرة اللفظية عند الخيام في الرباعيات، وهي أكثر تمثلاً وحضوراً في شعره العربي. والخيام فيه يملك ناصية البيان العربي، والمعاني ترد إليه متدفقة، وترابطاته اللفظية والفكرية تأتيه بسهولة.

وتثبت رسائله الفلسفية التي نشرناها أن قدرته على التفكير والاستنتاج والتعميم من الأمور المسلم بها.

ولعل اختياره للشعر ك مجال فني للتعبير عن فلسفته إنما هو نتيجة لتمتعه بقدرات فنية تكامل قدراته الفكرية. واختياره لشكل الرباعية يدل على نزوج في القدرة على الحكم وتقدير الجمال، لأن الرباعية كشكل فني بسيطة في البناء، ويهدف الذي يختار هذا الشكل البسيط أن يحظى بالقبول من السامع، ويطلب بها أن يطرق فكرة واحدة، ويستخدم فيها الموسيقى اللفظية سريعة التأثير. ومن شأن الرباعية أن تحتوى الفكرة بأوجز عبارة بغرض تيسير الفهم والتخيل.

والرباعية كشكل فني لا يتقنها إلا صاحب الذوق الجمالي العالي القادر على تشطير البناء الفكري إلى وحدات، وتقدير التألف الموسيقي بين الأشطر الأربعة التي تتكون منها الرباعية. وللحالة المزاجية دورها البارز في اختيار الشكل الفني والمضمون الوجداني، واختياره المعادلة كشكل فني يصوغ فيه أفكاره منطقياً على هيئة مقدمات ونتائج. ولعل هذا المزاج الفني فيه كما سبق أن نوّهنا هو الذي جعله يفضل في مجال الفلسفة «الرسالة» على «الكتاب» كشكل يقدم فيه أفكاره، وفي مجال الشعر جعله يفضل «الرباعية» على «القصيدة». واختياره لشكل

الرباعية أتاح له أن يصوغ الخاطرة الشعرية كأنها قانون رياضي أو مسألة منطقية. وانظر إليه يقول:

كل شيء فينا ومنا  
نقطاً في وجودنا المسكون  
أثر من دمونا جهون  
وهزار من الكهود الجهم  
وثوان من السرود النعم

مقدمة

فلتكن مثلما نكون ونرضى السـ  
وه حالاً أو التمتع حالاً

نتيجة

\*\*\*\*\*

والخيام مزاجياً مطوي ظاهرياً، ومنهبط باطنياً. وانطواؤه جعله يعتزل أصحاب السوء والجهال والمشتغلين بالسياسة، ولا يطلب من نظام الملك سوى أن يكفيه من الرزق أن لا يحتاج إلى الناس، وأن يقصر نفسه على الاشتغال بالتفكير والتصنيف والتدريس، على عكس زميله حسن بن الصباح الذي ناشد نظام الملك أن يشركه في الحكم، وتمرد عليه من بعد، وانفصل بحكم قلعة وكر النسر أو «الموت» كما كانوا يسمونها، بل وأهز باغتياله برغم زمالتها القديمة في الدراسة.

والانهساط الباطن في الخيام هو الذي دفعه أن يقصر كتابته للرباعيات على نفسه وعلى جلسائه، وأن تكون كتابته للشعر في السر، وأن يختلي بنفسه وأوراقه لي طرح فيها أشواقه، ويحبر مباحجه ومسراته، أو يعزفها على العود: يقول:

حلّ عيد النيروز والأنس حللاً  
والنسيم الشافى العليل أبلاً  
وثغور الأزهار ترشف طلاً  
صاح لاحت في نوحنا يد موسى  
صاح موت بالروض أنفاس موسى  
عاد فصل الربيع والنفس طابت

وكان يدين بكلماتها فتساعده أوزان الشعر التي يختارها على إنشادها:

وليمالى داود ليهمت قصود  
والفنى ومن الفنا والعُود  
فقم انظر فاليوم أزهر عُود  
فوتك بلبل يفنى لود  
شفتك الصقم من غرام ووجد

والانطواء الظاهر هو الذى كان يشعره الخجل، وطبعه بالحساسية، ويدفعه إلى التأمل والحزن، والاستغراق فى التفكير.

وهذا الانطواء نفسه هو الذى جعله لا يطلب الزواج، لأنه كان يأتف من مسئولياته الدنيوية، ولا يرى نفسه أهلاً لمترباته. والانبساط الباطن أعطاه الانفعال اللحنو على الأطفال. فلما رأى الصبى من أولاد الأمراء يخدم السلطان بهمة وإخلاص أظهر الحذب طيه، وأثنى على سلوكه، فقال السلطان لا تتعجب من حُسن خدمته على صغر سنه، فإن فرخ الحاجة إذا تفقت بيضته، التقط الحَبّ بلا تَعْم، وفرخ الحمامة لا يلتقط الحَبّ إلا بتعلم الزق، لكنه إذا كَبُر وصار حماماً، طار وحده هابياً من مكة إلى بغداد!!... ومندند اطمأن الخيام وتلاشت حسرتة على الصبى.

وأيضاً فقد حكى الإمام البيهقى أنه - أى البيهقى - كان صغيراً، وبخل على والده فى حضور الخيام، فأحسن خيفهما إليه وسأل عن بيت فى الحماسة، وأبدى له غايه السرور منه وشجّه.. ونخلص من ذلك إلى أن الخيام كان محباً للأولاد، حانياً عليهم، شفوفاً بهم، وكان هذا دأبه مع كل الناس. وتلك كانت أخلاقه المفطورة فيه والتي أملاها عليه علمه الواسع وثقافته الموسوعية.

والانفعالية العامة التى طبعت الخيام هى التى صنعت منه شاعراً متمرداً وإن كان تمرده من النمط الفلسفى. ويبدو الخيام فى شعره كأنما هو مشحون بالغضب الشديد على مسائل وجودية كالقضاء والقدر والموت، ويظهر فى رباعياته انفعال الخوف من الموت والمصير انفعالاً سلبياً ورغبة فى تحطيم الكون، يترجمهما الخيام إيجابياً إلى نزمة جدلية ورغبة فى تشكيل الكون من جديد، ليخلو من الشر والجهل والمرض والنقص والعوز والفقر، ويجعله دنيا أفضل أو يوتوبيا وجنة أرضية متخيلة جديدة بالإنسان.

ولعل التمرد عند الخيام من أهم عناصر شخصيته، ويستحق منا أن نخصص له فصلاً وحده، وسيكون بإذن الله هو فصلنا القادم.

\*\*\*\*\*